قالت العرب

وأكتب فى مفكرتى /أحبّ البرتقال و أكره الميناء / وأردف
فى مفكرتى / على الميناء وقفت / وكانت الدنيا عيون
الشتاء / وقشرة البرتقال لنا و خلفى كانت الصحراء.

المشهد

العدد 332 – السنة الثانية عشرة-الأربعاء 4 أكتوبر 2023م - 19 ربيع الأول 1445هـ

كيف احتفت المخيلة الشعبية بحرب أكتوبر

ربما لا يختلف اثنان على أن الأدب الرسمى – فى الشعر والرواية والقصة القصيرة – لم يجسد انتصار حرب أكتوبر بالصورة اللائقة لأسباب متفاوتة منها أن الأحداث المؤلمة أكثر وقعًا فى النفس ودفعًا للكتابة من الأحداث السعيدة، هو ما يفسر الحضور القوى لنكسة يونيو على سبيل المثال. لكن إذا نظرنا إلى المخيلة الشعبية سنجد أنها قد فعلت العكس أسقطت من ذاكرتها الأحداث المؤلمة كما هى العادة، فلم نرصد فى تتبعنا للحكايات الشعبية من سير وغيرها توثيقا لأى من الأحداث المؤلمة التى مرت بها بلادنا على مر تاريخها وهى حافلة بالمآسى المختلفة من حروب وأوبئة واضطرابات سياسية، فلا يحضر ذلك.

وإذا ذكرت أى منها فلا تأتى دون أن تضمن النهاية السعيدة، حيث يأتى البطل الذى يتخطى هذه الصعاب ويحقق الانتصار. ففى أوقات الأزمات تستدعى المخيلة الشعبية وتخلق حكايات عن أبطال خارقين قادرين على تغيير الواقع المؤلم مثلما هو الحال مع (عنترة بن شداد، الزير سالم، الظاهر بيبرس، الأميرة ذات الهمة، حمزة البهلوان، أبوزيد الهلالي، على الزيبق، أحمد الدنف، سيف بن ذى يزن). مخيلة شعبية تحتفى بالنهايات السعيدة وتطلبها وترفض التعايش مع الواقع القاتم، فترسمه جميلًا كما تتمناه فى إبداعها الشعبي.

فنلاحظ أنه فى مقابل الآداب الرسمية التى كانت الهزيمة أكثر حضورًا فيها، فإن الفنون الشعبية احتفت احتفاء واسعًا بنصر أكتوبر، وكانت صورة الانتصار أكثر حضورًا عندها، ومن ذلك ما قاله الشيخ «أحمد أب برين» ابن مدينة إسنا صاحب الصوت الرخيم والأداء المتفرد. فقد خصص لحرب أكتوبر شريطًا كاملًا يحكى فيه عن بطولات المصريين فى هذه الملحمة أطلق عليه اسم «قصة العبور» حيث يتحدث فى أول مواويله على لسان موشيه ديان يا ولاد مصر يا طيبين يجعل كلامنا عن ديَّان: «يا ناس قاعد ما داريش(لا أدري)، ده قدرى وأنا ما بيديش (ليس بيدي)، يوم السبت قاعد خلف الجيش، ميل عليَّ واحد شاويش، من خلعتى أصابنى التشويش،... فى ظاهر شاويش؛ لكن فى الباطن درويش، ضربنى وضيعنى يا عين جند من أولاد الحسين».

يعيد أحمد برين ما قاله مرة أخرى لكن دون موسيقى: كلامى يرجع على ديان: قال يا ناس أنا قاعد ومادريش، ده قدرى وأنا ما بيديش، يوم سبت قاعد خلف الجيش، ميل على واحد شاويش، من خلعتى أصابنى التشويش، فالظاهر شاويش وفى الباطن درويش، ضربنى وضيعنى يا عين واحد من أبناء الحسين.

يتخيل أحمد أب برين حوارًا يدور على لسان موشيه ديان بأنه كان جالسا فى راحة دون أن يدرى ما الذى يحدث، فما حدث كان قدرًا مقدرًا وليس فى يديه شيء ليفعله حيال ذلك الأمر، ويكمل الحوار على لسان ديان بأنه فى يوم السبت – وهو اليوم الذى اندلعت فيه حرب أكتوبر – وهو خلف جيشه أتاه «شاويش» ولم يكن هذا الشاويش حقيقيًا إنما هو ولى من الأولياء «درويش» لكنه يتخفى فى زى العسكرى وقام بضربى وضيعنى وتسبب فى خسارتي، وقد أرعبنى حضوره وأفقدنى القدرة على التفكير.

ويبرز فى هذا الموال المعتقد الشعبى بأن الأولياء حاربوا مع المصريين فى هذه المعركة، والمقصود بابن الحسين الذى ضرب ديان هو السادات حيث يعود نسبه إلى قبيلة الجعافرة الأشراف أحفاد الحسين رضى الله عنه وأرضاه.

وينتقل الرنان إلى موضوعات أخرى من قصة العبور قائلًا:

«فيصل متين، مش عاوزه قُول، بالعربى يعنى كان راجل معقول/ فى بلاده كان غلّا البترول، منعوا من الغرب والأمريكان، ملك وله الروح والعين، فى بلاده كان حامى الحرمين، سكن جوار مدينة الزين، جار طه النبى حبيبنا العدنان، يا ليالى الهنا عودى ببشاير، أنا وانتم جمعا للنبى زاير، عشت يا مغرب يا جزاير، واليمن والكويت وأبو ظبى وإيران»

ويكمل مواويله التى توجه الشكر كل من ساندوا مصر فى هذه المعركة

«وتونس يا صحاب العزة، أدى تل أبيب صبحت على لذة (أى دفعة واحدة وتسقط إلى الأبد)، والعاقبة لما نوصل غزة، ونصلى جمعة فى أرض الشام (وفى العريش ناكل رمان)، وتونس يا حسبى يا نصيبي، سلامى لك جعفر يا نميري، وأنت تعيشى يا سودان».

يوجه أحمد أب برين شكره للزعماء العرب الذين كان لهم دورًا مهمًا فى انتصار أكتوبر يبدأها بدور الملك فيصل الذى يصفه بأن متين قوى وهذا القول لا يحتاج إلى شرح، لأنه منع البترول عن الغرب والأمريكان، وهذا ليس غريبًا عن خادم الحرمين الشريفين ومن سكن بجوار النبى صلى الله عليه وسلم، ويواصل شكره لبقية الدول العربية والإقليمية المغرب والجزائر وأبو ظبي، واليمن والكويت وإيران وتونس ويخبرهم أنه بفضلهم أصبحت تل أبيب على بعد خطوة واحد من الإنهيار والاندثار، ويدعو إلى اكتمال هذا الانتصار بتحرير فلسطين والصلاة فى القدس، ولا ينسى أب برين أن يرسل سلامًا خاصًا إلى شعب السودان ورئيسهم جعفر النميرى وقتها تقديرًا لدوره فى مساعدة مصر أثناء هذه المعركة

وينتقل المداح أب برين إلى جانب آخر من العبور قائلا

«وعشت أنت يا بورسعيد، ده ٥ يونيو هيكون عيد، عشّان كافحتى كفاح مجيد، وناضلتى والنصر بان/ ما بين بورسعيد واسماعيلية، بورسعيد الفتية، ودور ملاحتنا الدولية، سبعين سفين فيها تجارية، بأمر العرب قطعوها أميال (يفسر: لما سدوا القناة بسبعين سفينة تجارية)»

ويكمل: «مصر بلدنا ووالله يا خال، غاليه وسكنوها الأبطال، أوحش ما فينا جندى عال، من الصعيد نهتف ونغني، يوم خمسة يونيو فتحوا القنال».

ويبعث الحج أحمد أب برين سلامه إلى أهل بورسعيد، حيث يكشف الموال عن المناسبة التى يغنى فيها، ألا وهى إعادة فتح المجرى الملاحى مرة أخرى لقناة السويس وكان ذلك فى يوم ٥ يونيو ١٩٧٥م، ولم يكن اختيار هذا اليوم عشوائيًا وله دلالة واضحة يذكرها الحج أحمد فبعد هذا اليوم لن يكون يوم ٥ يونيو يومًا يذكرنا بالنكسة بل بالانتصار على العدو واسترداد حقنا.

ولا ينسى أب برين الإشادة بالجيش المصرى على هذا الانتصار والدعاء للشهداء فيقول «بحق طه الذى أسرى، من بعد العسر أتى بيسرى، تعبان اللى يعاند مصرَ، لأنها ذكرت فى القرآن/ على قلب طه بنى قريش، اللى بمديحه ابتعيش (سوف تعيش وتحيا)، يا رب بارك لنا فى الجيش، من المنزلة إلى سد أسوان.

يقول بأنه بحق رسول الله الذى أسرى به إلى السماء السابعة، أنه بعد العسر قد جاء اليسر، وأن الذى يعاند الشعب المصرى يعيش حياته فى كد وتعب لأنها ذكرت فى القرآن ومحروسة من الله عز وجل، ويدعو الله أن يحفظ الجيش المصرى من كل شر ليقوم بدوره المنوط به فى الدفاع عن الحدود المصرية من الأخطار الخارجية.

فن الواو

وفى هذا الصدد ننتقل إلى شاعر شعبى آخر معاصر عبَّر عن هذه الحرب بفن الواو وهو من الفنون القولية المنتشرة فى جنوب مصر ويعيد البعض نشأتها إلى ابن عروس صاحب المربعات المشهورة

فيقول الشاعر سعد أبوضو: « فى أكتوبر طريق الخطر ده مريناه/ وكان علينا الحمل أكبر/ قومنا على خط برليف دمرناه/ قوم أسعفتنا الله أكبر» يستعيد فى هذا المربع كيف عبر المصريون خط برليف المنيع الذى اعتقد الصهاينة أنه خط لا يقهر لكن براعة الجندى المصرى التى نجحت فى دكه بخراطيم المياه، وكيف كان لجملة الله أكبر أثر كبير فى نفوس المصريين وينسب إليها الفضل فى تحقيق المستحيل.

ويقول سعد أبوضو فى مربع ثان: «من الماضى أخدنا عبرنا/ والعدو كفانا الله شروره/ توكلنا الله عبرنا/ والظالم كسرنا غروره». ويتبعه بمربع ثالث يقول فيه:

«كسَرَ العدوَ جيشنا الحر/ وكان عن أرضه مدافع/ فى عز الصوم والحر/ التكبيرات دانات مدافع».

ويشير سعد أبو ضو فى المربعين إلى أصالة الشعب المصرى فمن تاريخه الطويل المملوء بالبطولات استمد قوته وعبر القناة وكسر غرور الكيان الصهيوني، ويلفت أن ذلك كان فى وقت الصيام فى العاشر من رمضان، فالعاطفة الدينية كان لها دور كبير فى الانتصار، من صوم وتكبيرات أرعبت العدو وكانت بمثابة المدافع.

ومن الأشعار التى ينقلها عن نصر أكتوبر الشاعر مسعود شومان فى كتابه « الشعر الشعبى فى مجتمع البجا» وهم قبائل من العبابدة والبشارية والرشايدة يعيشون فى مناطق الحدود المصرية الجنوبية على حرف الرعى وتربية البهائم، فمن المربعات التى عبروا بها عن هذا الانتصار

«انتصروا العرب يوم عشرة فى رمضان/ انتصروا العرب وديان صبح مرضان/ وعشان جيش العرب قرض اليهود قرضان/ ومائير للصباح ما بطلت جضان».

«انتصروا العرب يوم سبت كان فى العصري/ وعدينا القنال رافعين علمنا المصري/ وانهزم اليهود وجيشهم محتصري/ تبقى نفوسهم طول الأبد منكسري»

ويؤرخ المربعان تاريخ الحرب يوم العاشر من رمضان، وفى يوم سبت قبيل العصر، حيث انتصر العرب على ديان مما أصاب موشيه ديان بالمرض والقهر، فالعرب فتكوا بالصهاينة، وحال جولده مائير لم يكن أفضل من ديان فهى لم تتوقف عن الأنين والحسرة، بعد أن عبر الجيش المصرى القناة ورفع العلم وحاصر اليهود وكسرهم وأذلهم.

«جيت أتسلى يوم فى الجرنال لقيت صورتها/ لغاية الدقن نازله الجلود قورتها/ حتى الكلب ديان ماشى بشورتها/ وانتصر العرب مائير يا طول حيرتها».

ويسخر هذا المربع من مائير وديان، ويبرز شماتة الشاعر فيهم بعد أن رأى صورتهم فى الجرنال هو يتابع أخبار الحرب، لقد قهرهم المصريون وأذلوهم كما هو واضح فى الصور

«مائير تبكى وتقول الفكر احتار/ ديان اتسمح مين اللى يجيب التار/ ولسه من العرب راح يشوف بلاوى كتار/ والمنخار شبر والعين تلت تمتار».

ويكمل الشاعر الشعبى صورة مائير الباكية وهى تسأل ديان من سيأتى لهم بالثأر من العرب، فيخبرها الشاعر أن ما ينتظرهم من العرب ما هو أكسر ويختم المربع برسم صورة كاريكاتورية من المنخار الذى طوله شبر والبوز الذى يمتد إلى ثلاثة أمتار.

وتكشف تلك المربعات والمواويل التى جاءت من إبداع القريحة الشعبية عن مدى فرحة الجماعة الشعبية فى أقصى جنوب مصر وفى كل شبر من المحروسة بهذا الانتصار العبقرى والتغنى به وأنهم لم يذكروا النكسة إلا بعد أن جاءت العدالة أو النهاية الشاعرية بانتصار الخير على الشر وقهر العدو.

د. عبدالكريم الحجراوي

ظلموا أدب الحرب فقالوا؟

بقلم: السيد نجم

بداية تعرض ما كتب عن التجربة الحربية فى السرد تحديدا إلى مقولات صادمة وللأسف راجت وتوارثتها الأقلام غير الفاحصة، وباتت تتجدد مع كل مناسبة وطنية. وأظن أنهم لا يدرون قدر خطورة تلك المقولات وبحسن نية يرددونها، مرة من باب الفصاحة النقدية، ومرة من باب التعالى على المتاح والمنتج، ومرة بيد خبيثة من أجل اخفاء منجز جيل كامل وربما أجيال عاشت تجربة وفلحت وحققت ما لم يتحقق منذ أن فتح صلاح الدين الأيوبى القدس ومنذ أن انتصر قطز والظاهر بيبرس على التتار؟!

قالوا أول ما قالوا: إن ما كتب عن حرب أكتوبر أقل من قامة إنتصار أكتوبر؟ ما يعنى أن ما أنتجته القريحة الإبداعية فى الفنون والآداب لا يتجاوز العمل الانفعالى البعيد عن الفنية الرفيعة. وهي مقولة غامضة وسوف أشير إلى السرد وحده هنا، وغامضة لأنها لم تستوعب معنى التجربة الحربية ولا أن التجربة الحربية في أكتوبر ٧٣ بدأت مع معركة رأس العش فى نهاية شهر يونيو شهر النكسة ٦٧، وفيها كانت أول مواجهة مباشرة بين الجندي المصري والإسرائيلي. والراصد للأعمال الأولى التى صدرت خصوصا فى القصة القصيرة يتأكد أنها قصص معبرة عن رهافة فى الحس وطموح، وعلى الرغم من أنها كتبت بعد حزن وألم النكسة إلا أنها خلت من الشعارات والصوت الزاعق (فى أغلبها) وهو ما لم يلاحظ مع قصص معارك العراق- إيران التي استمرت لثماني سنوات.

الشق الآخر للإجابة على السؤال الذي طرحته عليّ جريدة «المشهد»، وهو عدم فهم جوهر التجربة الحربية في أكتوبر ٧٣ حيث أنها تقع على ثلاث مراحل، الأولى منذ النكسة حتى بدايات معارك ٦ أكتوبر، ثم مرحلة المعارك من ٦ أكتوبر حتى وقف إطلاق النار. ثم الفترة التالية للمعارك وأثر الحرب على الناس والبلاد. إن كل مرحلة لها ملامحها وخصوصيتها وبالتالى فنية القصة أو الرواية فيها مختلفة وقد رصدت ذلك فى أكثر من كتاب لي في تنظير أدب الحرب وأدب المقاومة.

وبناء عليه، لا توضع كل الأعمال في سلة واحدة فالمرحلة التالية للنكسة ثم فترة الاستنزاف، وبعدها فترة اللا حرب واللاسلم، ثم فترة الاستعداد للمعركة الحاسمة وهي الأعمال التى كانت تدعو للانتباه وللثأر مع رصد بعض بطولات أثناء حرب الأيام الستة، مثل رواية فؤاد حجازى «إنهم يضعون المتاريس» التى رصدت تجربة الأسر، وقد احتفظت إدارة المتحف الحربي فى موسكو بتلك الرواية وبعدد من أوراق الكاتب التى هى أوراق شكائر الرمال وأوراق جرائد كتب عليها فؤاد مسودات روايته.

أما المرحلة التالية فهى مرحلة المعارك والتى يمكن رصدها من خلال بعض الكتابات الشعرية والقصص القصيرة، ويشرفنى أن أسجل هنا جهد مجلة «الشباب» التى كانت تباع بقرش صاغ واحد، وهي عبارة عن ملزمة مطبوعة، وقد نشرت فى أعداد اليومية حوالي ٦ قصص قصيرة عبرت عن مشاعر وأحلام جندى يحارب خصوصا بعد وقف إطلاق النار أي بداية من أواخر شهر أكتوبر. وهناك روايات رصدت البطولات بفنية عالية، ولي منها رواية «السمان يهاجر شرقا».

أما المرحلة التالية للمعارك ولفترة ما يتم رصد ما حدث وبفنية أكثر وهو الأمر الذي يتوقف على حرفية وكفاءة المبدع نفسه. وتحضرني هنا رواية «مراعي القتل» لفتحي إمبابي والتي تابعت الجندي المصري الفلاح بعد الحرب، وقد تم تسريحه فلم يجد سوى الهروب «سلكاوي» إلى ليبيا ويحدث ما هو أشق وأصعب من الحرب ذاتها.

وبالعموم هناك نصوص رصدت البطولات وهي مطلوبة في ذاتها للأجيال القادمة وللتاريخ.. وهناك النصوص المتألمة والتى تحفز على المقاومة والثأر وبلا صوت زاعق فى أغلبها ومنها ما كتبة محمد الراوي ومصطفى نصر وقاسم مسعد عليوه والسيد نجم وغيرهم.. وتجيء النصوص ما بعد المعارك والتى تكتب حتى اليوم ومنها روايتى التى صدرت منذ ايام «حصار الحمام الأبيض».

فى الختام أقولها بملء فاه «أدب التجربة الحربية» لم يقرأ بجدية ونقدية حقيقية حتى الآن، ويجب أن ننسى مقولة أدب أكتوبر أقل من قامة أكتوبر.

ما قدمه الأدب عن حرب أكتوبر – وكل حروب مصر - نراه شحيحا

فتحى إمبابي

الحرب نشاط إنسانى يصل إلى أعلى مراحل العنف، وهى فعل فردى وجمعى بشري، تجتمع وتتضافر فيه كل القيم الإنسانية من خير وشر، جبن وشجاعة، عشق وكراهية، دفاع عن الأرض واغتصابها، دفاع عن النفس والعِرض، وقتلها واستعبادها، وهى الكفاح من أجل استقلال الأوطان وهى نهبها واستحلال خيراتها.

وعندما يتناول الروائى موضوع الحرب يجد نفسه أمام معضلة الوجود الكبرى، وهى مواجهة الموت بحثا عن الحياة، والروايات الجيدة التى ترتقى لأقصى المعايير الفنية والإنسانية، تلك التى كتبت عن الحياة تحت وابل الرصاص وقصف القنابل والقتال بالسلاح الأبيض على حواف الخنادق، هذه الروايات تصير خالدة، وبعضها يرتقى إلى فن الملاحم؛ الإلياذة هوميروس، الحرب والسلام لتولستوي، كل شيء هادئ فى الحى الغربى تأليف إريش ماريا ريمارك، وداعا للسلاح ولن تقرع الأجراس لأرنست هيمنجواى والأمل أندريه مالرو ، وامرأتان لألبرتو مورفيا. والقائمة تطول، ولكن يجب أن نعترف أن هناك بونا شاسعا بين تناول الأدب الكلاسيكى الغربى للحرب، والتناول المصرى للحرب.

مفهوم الوطنية المصرية

تشكل مفهوم الوطنية المصرية بصورة تدريجية فى مطلع القرن التاسع عشر مع حروب محمد على باشا، وانخراط الفلاح المصرى فى جيش إبراهيم باشا فى المرة الأولى منذ احتلال روما لمصر عام ٢٧ ق م، وطوال القرن التاسع عشر انخرط الجيش المصرى الذى أنشأه محمد على وابنه الغازى إبراهيم باشا وأبناؤهما فى غزو المجال الجيواستراتيجى المحيط بمصر بدءًا من الحجاز إلى الشام والتوغل فى أراضى السلطنة العثمانية، وحروب المورة باليونان والقرم، ونهاية بضم السودان حتى منابع النيل فى البحيرات العظمى.

عشرات الحروب المتواصلة الناجحة، كونت لدى القادة العسكريين فى محيط الشرق الأوسط صورة متنامية عن كفاءة الفلاح المصرى فى الحرب، ومع تنامى طموحات محمد على استنادا على كفاءة جيشه واقتدار قائده إبراهيم باشا من خلال توالى انتصاراته وظهوره كقوة سياسية وعسكرية تستند على القيمة الحضارية التاريخية لمصر، آثار هذا مخاوف الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى، التى تكالبت على وأد تلك القوة الشابة وأحلامها المتصاعدة.

مع صدور اللائحة السعيدية عام ١٨٨٧ التى أعطت الفلاحين المصريين حق حيازة الأراضى وأتاحت لأبنائهم الترقى فى سلك الضباط حتى أعلى المناصب، تشكلت القواعد الموضوعية لبزوغ مفهوم الوطنية المصرية من الحالة السديمية التى كانت عليها مصر كمصر من الأمصار تحت الخلافة الإسلامية، أو بلد منتج للحبوب لحساب الإمبراطوريات الغازية. بعد أقل من ربع قرن خاض المصريون كفاحا من أجل دولة دستورية وطنية حديثة، كان الجيش المصرى أحد القوى الاجتماعية التى خاضت الثورة ضد الخديوى وحلفائه.

الحرب من أجل فلسطين

وقد تكالبت الدول العظمى على الجيش المصرى وعملت على تفكيكه والقضاء عليه حيث أعلن الخديوى محمد توفيق بعد هزيمة الثورة العرابية حل الجيش وإحالته إلى الاستيداع فى سبتمبر ١٨٨٢.

وحتى عام ١٩٣٩ اقتصر عمل الجيش على فرق الهجانة لحماية الحدود، ولكن مع ظهور احتمالات الحرب العالمية الثانية قررت بريطانيا تطوير الجيش المصرى ليس ليكون قوة عسكرية حديثة ولكن كقوة مساندة لدخول إنجلترا الحرب العالمية المرتقبة.

ومنذ ذلك الحين ومع ظهور الدولة الصهيونية خاضت مصر خلال أقل من ربع قرن أربع حروب كبرى أثرت على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع المصري.

نحن إذن بصدد عشرات الحروب على امتداد التاريخ المعاصر، مات خلالها مئات الآلاف من المصريين وكل شهيد رحل عن الحياة له أم وأب، زوجة وأطفال صغار أو حبيبة، أى أن هناك فى الزمن المعاصر فقط ملايين من القصص وروايات الحب والعشق والموت لم تجد من لديه الجرأة الفنية والمعرفية كى يرويها.

إذن الحقيقة الساطعة هو أن الأدب المصرى متخلف تماما عن متابعة ذلك النشاط الإنسانى المتعلق بالحروب المصرية بصورة دعنى أقول تثير الخجل. صحيح هناك القليل من الروايات التى ركزت جهودها على معالجة الجوانب المدنية المصاحبة للحرب، أما فعل الحرب نفسه فنادرة هى الأعمال التى نزلت هذا البحر العميق المضطرب.

حرب أكتوبر فى ميزان الأدب

تعد حربا يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣ من أهم الحروب التى خاضتها مصر فى النصف الأخير من القرن الماضي، ولكن يجب التنويه إلى وجود فارق موضوعى بين تناول هزيمة يونيو ٦٧ وبين معالجة حرب أكتوبر ٧٣، فلهزيمة يونيو أبعاد نفسية واجتماعية ذات ثقل يضارع وربما يتجاوز الجانب العسكرى للمعارك الحربية، وهو ما يدفع الروائى إلى الاستناد على المعلومات والتجارب الإنسانية التى صاحبت النشاط العسكري، وهذا يوفرمساحة واسعة من حرية العمل الفني. بينما فى حرب أكتوبر يمكن القول بأن جوهر السؤال المتعلق بالأدب وخاصة الرواية، يتمثل فى تناول فن الرواية للمعارك الحربية بوصفها انتصارا للعسكرية المصرية.

وتناول الروائى للمعارك الحربية كموضوع أساسى للنص، أمر متعلق بموضوعين جوهريين، الأول ثقافة الكاتب العسكرية وشغفه بالمعارك الحربية، قراءة كلاوزفتيز وليدل هارت وصن تزو، وجيفارا، وجنرال جياب، وفولر، وليس المعنى من الثقافة العسكرية أن يكون الكاتب بالضرورة رجل عسكرى أو حتى أنه مر بتجربة الحرب.

الأمر الثاني: متعلق بتوفر مادة المعارك الخام، وهو الأرشيف العسكرى للحرب وسير المعارك، إسرائيل كشفت عن أرشيفها العسكرى بعد مرور خمسين عاما على حرب أكتوبر، وهو أمر غير متوفر للروائى المصرى أو السوري.

نعم الرواية هى فن المتخيل، ولكن كى يكون المتخيل مكتوبا ضمن المنطق الموضوعى للأحداث، ودون شطط ولا استغراق فى رومانسية متهافتة، أو حماسة فجة وشعارات فظة، فلابد من توفر الرواية الحقيقية للأحداث الفعلية، وتوفير المعلومات للروائيين أمر حيوي، وهو يختلف فى فن الرواية عن أساليب الدعاية الذى تصدره السلطات السياسية لشعبها.

مراعى القتل

تنجح الأمم وتتقدم الى الأمام وتنتصر فقط، عندما تضع تاريخها العسكرى على خارطة البحث والتمحيص والدراسة كى تتعلم من انتصاراتها وهزائمها، ولهذا فإن الإجابة على سؤال حول ما قدمه الأدب عن حرب أكتوبر سوف نراه شحيحا جدا ربما لسببين:الأول أن الغالبية العظمى من الروائيين المصريين لا يملكون ثقافة حربية عسكرية، ما يتعلق بالأسلحة وأنواعها، وكيفية استخدامها، وتكوين الجيوش والرتب، والوحدات العسكرية، من فصيلة إلى سرية إلى كتيبة إلى لواء إلى فرقة إلى جيش، الثاني: أنه لا يتاح لهم الاطلاع على أرشيف وزارتى الدفاع المصرية والسورية. والثالث: وهو من أهم العوامل فى الكتابة عن رواية الحرب هو امتلاك الروائى لمخيلة تمكنه من صناعة مسرح العمليات وميادين المعارك، وحشد القوات، والتمكن من الكتابة على الورق بمشهدية تصور المعارك بجمال وحيوية وطاقة تتجاوز الفيلم السينمائي.

فى روايتي"مراعى القتل"، تناولت بشكل رئيسى حرب الاستنزاف، وكذلك حرب أكتوبر ٧٣، اعتمدت على عدد كبير من المراجع العسكرية، بعضها عن الاستراتيجية الحربية لكبار المفكرين العسكريين، بعضها عن الأحداث الحربية التى جرت. بعضها عن يوميات الحرب، بعضها عن مصادر عسكرية مصرية كتبها قادة الحرب أو مؤرخون عسكريون مصريون، بعضها عن مصادر أجنبية كتبها مؤرخون أجانب، بعضها كتبه قادة جيش الدفاع الإسرائيلي. ولكن كان المهم هو الاستماع بعناية فائقة إلى رواية أحد الجنود الذين خاضوا حرب الاستنزاف وأصيب فى الحرب.

فى النهاية يبزغ سؤال هام وهو: هل ماكتب عن حرب أكتوبر يتناسب مع ما حققته من نصر؟! والإجابة هى بالطبع لا، ولكن الأمر لا يقتصر على حرب أكتوبر، فالأمر ينطبق تقريبا على كافة الحروب التى خاضتها مصر.

أدب جيد لم يجد نقادا يكشفون ما فيه

محمد الشاذلي

لدينا تجربة مهمة في أدب الحرب خطتها أجيال من كتاب القصة والرواية، وربما يكون تقصير الشريط السينمائي وراء شعور البعض بتخلف «الإبداع» في التعبير عن نصر أكتوبر ١٩٧٣. بالنسبة لأدب الحرب، فإن جيلا جديدا من الأدباء والذين اتفق علي وصفهم بـ«أدباء الستينيات» ظلوا يكتبون منذ وقع الهزيمة في يونيو ١٩٦٧ حتى لحظة النصر التاريخية. كانت نقطة انطلاقهم تقريبا عند مجيد طوبيا «أبناء الصمت»، إبراهيم عبدالمجيد «الصيف السابع والستين»، يوسف القعيد «الحرب في بر مصر»، وجمال الغيطاني«الرفاعي»، وغيرهم، وإن كان بعضهم بدأ قبل ذلك لكنني أتحدث عن دماء جديدة في شرايين الرواية المصرية. بينما الرواية ورواداها الكبار وهم يعملون، بدأ نوعان من الكتابة الجديدة، عن الحرب، الأدباء في الداخل من روائيين وقاصين وشعراء، وهؤلاء الذين خرجوا من ملابس الجندية قادمين من الصحراء أو من تحت الحصار. وبعد سنوات من أدب تعبوي ليس موجها من السلطة غالبا، أصبح لدينا أدب «أكتوبر» الذي جرت حوله مسابقات لفترات طويلة. لا يمكن هنا تجاهل الرواية الأشهر «الرصاصة لا تزال في جيبي» لإحسان عبد القدوس، وكتابة السيد نجم في روايته المهمة «السمان يهاجر شرقا»، ورواية «الطريق إلى رأس العش» لعبد العزيز موافي، ورواية «أنشودة الأيام الآتية» لمحمد عبد الله الهادي و«الوجه والقناع» لسعيد سالم، و«الأسرى يقيمون المتاريس» لفؤاد حجازي. وكما قلت فإن كثيرين ممن حاربوا أبدعوا روايات مهمة، مما ذكرت هنا، وأضيف الي ذلك رواية الجندي محمد حسين يونس «خطوات علي الأرض المحبوسة».

أظن أن كتابة أدب الحرب مستمرة لم تتوقف، ورغم مرور الزمن، فإن الأمر ممتد، وفي الألفية الجديدة، كانت رواية سمير الفيل «وميض تلك الجبهة».

ومن أسف فإن قناعات سادت اعتبرت أدب نكسة ٦٧ أفضل إبداعيا من أدب نصر ٧٣، وأن الأدباء تجاهلوا النصر. وهذا رأي سياسي وليس نقدا أدبيا، فالمرايا المعاكسة كثيرة بين نظامين، نظام وقعت فيه الهزيمة وله أنصاره، ونظام حدث فيه النصر وله أعداؤه. لكن النقد الأدبي والقراءة المتبصرة تكشف عن أدب جيد لم يتوقف، وان لم يجد نقادا يكشفون ما فيه.أما ما أكتبه الآن عن حرب أكتوبر وقد كنت طالبا في الثانوية العامة عند وقوعها، فإنني لم أستطع مقاومة الكتابة عنها، ربما هزتني مجموعة رسائل وجدتها بالمصادفة، بعثت بها طالبة جامعية الي خطيبها الضابط في الجيش، وكان من الذين عبروا في اليوم الثالث أو الرابع من الحرب. وبعد عودته لم يتمكنا من الزواج، وذهب كل في طريق، رغم الحب العظيم. تولدت لديّ فكرة أو أنه بدا لي أن من حقق وساهم في نصر أكتوبر لم يربح الحياة بنفس القدر. ربما سبّب لي الأمر حزنا شديدا في الواقع، ما دفعني لمحاولة كتابة هذا النص الروائى، وهو في مرحلة مراجعة مني حاليا.